الجزء الثاني

قصة سير بيلياس

الفصل الأول

والآن سوف أخبركم بقصة سير بيلياس، الذي كان يلقبه الكثيرون بـ«الفارس اللطيف». بدأت القصة بخروج الملكة جوينيفير في يوم ما للتنزه بصحبة وصيفاتها وبعض الفرسان. كان اليوم رائعًا، وكانوا يستمتعون بنزهتهم عندما اقتربت منهم على حين غرة امرأة تمتطي جوادًا أبيض، وكان يرافقها ثلاثة خدام يمسك أحدهم بشيء مربع كبير مغطى بقماشة من الستان الأحمر.

كان اسم المرأة بارسنت وقد جاءت من بلاط الليدي إيتارد من أجل غرض محدد للغاية؛ إذ كان كثيرون في بلاط الليدي إيتارد ومن المحيطين بها يعتبرون الليدي إيتارد أجمل امرأة في العالم، وكان قد تناهى إلى مسامعها أن جوينيفير بارعة الحسن أيضًا، من ثم أرسلت بارسنت كي تتحقق من صحة هذا.

قالت بارسنت: «وحقًّا هذا حقيقي.»

قالت جوينيفير: «هذا رائع للغاية، لكن من المضحك أن تأتي كل هذه المسافة من أجل مسألة تافهة كهذه. أخبريني، ما هذا الشيء المربع المغطى بالستان الأحمر؟»

وبإيماءة من بارسنت نزع الخادم الستان الأحمر ليكشف عن لوحة لليدي إيتارد.

قالت جوينيفير في لطف: «إذا كانت هذه هي الليدي إيتارد، إذن فهي غاية في الحسن أيضًا، بل إنها أجمل مني بكثير.»

اعترض سير بيلياس قائلًا: «ليس صحيحًا يا سيدتي! أنتِ الأجمل يا سيدتي، وأنا على استعداد للدفاع عن ادعائي هذا في مبارزة.»

قالت بارسنت: «من حسن حظك أننا هنا ولسنا هناك في بلاط الليدي إيتارد، وإلا كان سير إينجامور من مالفيرات، المنوط به حماية الليدي إيتارد، أجبرك على الدفاع عن ادعائك في مبارزة!»

أكد سير بيلياس أنه يرحب بمثل هذه المبارزة الودية، وترجى الملكة أن تمنحه إجازة من أجل القيام بهذا. ومع أنها ظلت تنظر إلى الأمر كله على أنه أمر تافه، فقد سُرت بالإطراء ووافقت على هذه المغامرة.

كان سير بيلياس شديد الحماس لهذا القتال، حتى إنه لم يُضع الوقت في تجهيز أو ارتداء زي القتال الخاص به، إذ كان على يقين كما ذكر من أنه سوف يعثر على درع ملائم لهذا الغرض في مكان ما على الطريق.

وفيما كان يجتاز بيلياس وبارسنت والمجموعة المرافقة لها «غابة المغامرات»، صادفوا امرأة عجوزًا تجلس على ضفة مكسوة بالطحالب لنهر متلاطم الأمواج. كانت عينا المرأة شديدتي الاحمرار كما لو كانت تبكي منذ سنوات، ووجهها نحيل ومليء بالتجاعيد، والشعر الخشن ينتشر في وجنتيها وذقنها.

ارتجفت بارسنت، وجال ببالها أن هذه المرأة بلا شك قبيحة المنظر على خلاف جوينيفير والليدي إيتارد! ومن ثم عندما طلبت المرأة العجوز من سير بيلياس أن يقلها على جواده عبر النهر متلاطم الأمواج، أخبرتها بارسنت أن سير بيلياس هو رجل ذو شأن رفيع لا يقوم بمثل هذه المهمة.

لكن سير بيلياس وبخ بارسنت في لطف، وذكرها بأن الفارس الحقيقي هو من يساعد أي شخص مضطر. وعندئذ نزل عن جواده، ورفع المرأة وأركبها على الجواد، وعبر بها إلى الضفة الأخرى من النهر.

وما إن وصلا الضفة الأخرى، حتى قفزت المرأة العجوز عن الجواد وتحولت فجأة، فبدلًا من العينين الحمراوين والتجاعيد والشعر الخشن، أصبح لديها عينان سوداوان مثل الجواهر، وبشرة بيضاء كالعاج، وشعر طويل ناعم كالحرير، وحول عنقها قلادة جميلة عبارة عن حلقة ذهبية مرصعة بأحجار الأوبال والزمرد. وعرف الجميع في التو أنها نيمو كبيرة سيدات البحيرة، ولم يكن تنكرها في شكل امرأة عجوز سوى اختبار لفروسية سير بيلياس.

قالت نيمو: «لقد نجحت في الاختبار، من أجل ذلك ستحوز مكافأة.» ثم مدت يدها ونزعت عن رقبتها القلادة الذهبية وأعطتها لسير بيلياس ليعلقها على كتفه كالنيشان.

وما لم يعرفه سير بيلياس هو أن القلادة كانت سحرية؛ إذ يقع في حب من يرتديها كل من ينظر إليه. وواصل الجمع سيرهم.

في اليوم التالي، وأثناء وجودهم في الغابة، صادف سير بيلياس وبارسنت امرأة باكية أخرى، لكن هذه المرأة كانت صغيرة السن، ويتبعها حامل درع حزين أيضًا.

سأل سير بيلياس: «ما الخطب؟»

تنهدت المرأة وقالت: «لا عليك، فأنت لا تستطيع أن تساعدني.»

سألها سير بيلياس: «وما أدراك؟» ثم ساعدها على النزول عن جوادها برفق، وأعطاها بعض الماء، وطلب منها مرة أخرى أن تخبره بمتاعبها.

وكانت القصة التي روتها أخيرًا قصة محزنة. كانت المرأة تصطاد بصحبة عريسها سير براندميري، فركض كلبهما المحبوب عبر جسر طويل ضيق يمر بجدول ماء عنيف الأمواج، وعندما بدآ يعبران الجسر، خرج فارس مرعب من قلعة مبنية بحجارة داكنة اللون على الجانب الآخر من الجسر، وكان الفارس وجواده يتسربلان بملابس حمراء.

ومع أنهما أوضحا للفارس الأحمر أنهما يريدان أن يرجعا كلبهما فحسب، فإن الفارس الأحمر أخبر سير براندميري أنه لا بد أن يهزمه أولًا إن أراد العبور. وكان سير براندميري غير مسلح ولا يرتدي سوى ملابس صيد خفيفة، غير أنه كان شجاعًا، فاستل سيفه وتقدم للأمام. ضرب الفارس الأحمر سير براندميري على رأسه فجعله يسقط للأمام على جواده وينزف بشدة. ومن دون أن يكلم الفارس الأحمر السيدة كلمة واحدة، أخذ بلجام جواد سير براندميري وسحبه هو وجواده عبر الجسر إلى القلعة المظلمة.

قالت المرأة باكية: «ولا أعرف إن كان ميتًا أم لا يزال على قيد الحياة!»

قال سير بيلياس: «سيدتي، يمكنني مساعدتك حقًّا.»

قالت المرأة: «لكنك لا ترتدي درعًا.»

رد سير بيلياس: «خذيني إلى هناك فحسب.» ففعلت المرأة كما قال.

وعندما بدأ سير بيلياس يعبر الجسر، جاء الفارس الأحمر مندفعًا مرة أخرى سائلًا من ذا الذي تجرأ على الاقتراب. أوضح سير بيلياس أنه جاء فحسب كي يسأل عما حدث لسير براندميري.

أجاب الفارس الأحمر: «لقد حدث له نفس ما سيحدث لك!»

قال سير بيلياس: «لكنني لست مسلحًا.»

رد الفارس الأحمر: «إذن، أقترح عليك أن تعود أدراجك.»

وبدلًا من أن يرحل بيلياس، التقط أضخم حجر استطاع أن يجده؛ حجر ربما لا يستطيع خمسة رجال عاديين أن يرفعوه، ورمى الفارس الأحمر بالحجر فأطاح به

عن جواده، وعندئذ استل سيف الفارس الأحمر ووضعه عند رقبته طالبًا منه بعض المعلومات.

عرف أن الاسم الحقيقي للفارس الأحمر هو سير أدريساك، وأن سير براندميري ما زال على قيد الحياة، لكنه يحتفظ به سجينًا لديه، بل إنه يحتفظ فعليًّا بنحو واحد وعشرين سجينًا آخرين، فقد كان يمسك عبر السنين بأي شخص يحاول أن يعبر الجسر، فيأخذه أسيرًا ويطالب بفدية هائلة. وثمة اثنان وسط هؤلاء الأسرى من بلاط الملك آرثر بالفعل هما: سير برانديلز، وسير مادور دي لا بورتيه.

كان بمقدور سير بيلياس أن يقتل سير أدريساك الشرير الوقح، لكنه قرر أن يعفو عنه بعدما توسل إليه أن يرحمه. غير أنه في المقابل سيمنح درعه إلى السير بيلياس الذي ما زال غير مسلح، ويطلق سراح كافة المساجين، ثم يذهب إلى كاميلوت ليطلب عفو الملك آرثر.

وفيما كان سير بيلياس يحرر المساجين، عثر على كل الثروات التي سلبها سير أدريساك عبر السنين، ولم يأخذ أي شيء لنفسه وإنما قسم كل شيء بين الضحايا، وقد أحبوه من أجل طيبته أكثر مما أحبوه من أجل تأثير قلادته السحرية. ترجوه ألا يرحل، لكنه كان في مهمة ما، لذا رحل بصحبة سير برانديلز وسير مادور ليتمماها.

وعندما وصل بيلياس وبارسنت حدود أرض «جرانتمسنيل»، أرض الليدي إيتارد، نصب هو ورجاله الخيام، وطلب من بارسنت أن تنقل رسالة إلى السيدة.

قال لها: «أخبريها من فضلك أن ثمة فارسًا هنا كي يعلن أن جمال الملكة جوينيفير أعظم، وكي يدافع عن هذا الإعلان ضد أي فارس قد يباريه.»

ولم تستطع بارسنت، بسبب وضعها، أن تتمنى أن يكون بيلياس الفائز في القتال، لكنها تمنت له حظًّا طيبًا بالطبع.

وفي اليوم التالي، ارتدى سير بيلياس الدرع الأحمر الذي أعطاه إياه سير أدريساك وبلغ القلعة من أجل الدخول في مبارزة ودية. وتجمهر حشد كبير من الناس، وأُنزل أمامهم الجسر المتحرك الذي خرج عبره فارس ضخم مرفوع الهامة متسربل بالكامل بملابس خضراء، وكان يُعرف بالفارس ذي الأكمام الخضراء، واسمه الحقيقي سير إنجامور من مالفيرات، وقد حيا سير بيلياس بتهذيب. غير أنه كان متحمسًا بشدة من أجل ليدي إيتارد، تمامًا مثلما كان سير بيلياس متحمسًا من أجل الملكة جوينيفير.

اندفع الرجلان أحدهما نحو الآخر بسرعة وقوة هائلتين، فأطاح سيف سير بيلياس بسير إنجامور عن جواده وطرحه أرضًا بقوة شديدة، فشهق الجميع لا سيما ليدي

إنجامور إذ لم ير أي واحد منهم سير إنجامور يُهزم من قبل. واضطرب سير إنجامور أيضًا لخسارته، وشعر بالخزي والخجل. ونزع سير بيلياس خوذته ومضى كي يقدم نفسه إلى الليدي إيتارد.

غير أنه ما إن وقف أمامها حتى أدرك أنها أجمل بكثير من صورتها، فأضمر لها شيئًا من الحب بسبب جمالها الشديد، وهي أيضًا أحبته بسبب القلادة السحرية التي يرتديها. كانت حتى هذه اللحظة تحتفظ بسير إنجامور إلى جانبها، لكنها طلبت سير بيلياس بدلًا منه على مدار الأيام القليلة التالية. وعاد سير براندیلز وسير مادور دي لا بورتيه أخيرًا إلى الخيام، لكن سير بيلياس مكث عند الليدي ضيفًا مكرمًا. وفي تلك الأثناء كان سير إنجامور يراقب بحزن وغيرة.

قال بيلياس لليدي إيتارد: «سيدتي، ماذا يمكنني أن أفعل كي أبرهن لكِ كم أهتم بكِ؟»

أجابته: «أعطني القلادة الجميلة التي ترتديها حول عنقك.»

لم يشأ سير بيلياس أن يتخلى عن القلادة التي كانت هدية خاصة من سيدة البحيرة، غير أن ليدي إيتارد سُرت بها للغاية، لذا وافق أن يتركها ترتديها بعض الوقت.

وما إن نزع سير بيلياس القلادة حتى توقف تأثير السحر وبدأت ليدي إيتارد يراودها شعور آخر غير الحب؛ شعور بالغضب الشديد لأنها افتتنت بسير بيلياس بهذه السهولة، ولأنها تجاهلت بطلها الذي طالما اعتنى بها طويلًا سير إنجامور. وبدلًا من أن تبوح إلى سير بيلياس بأن حبها له قد تلاشى، استمرت تبتسم له وتنظر له حُبًّا، وفي نفس الوقت تخطط بينها وبين نفسها للانتقام منه.

طلبت ليدي إيتارد من بارسنت أن تحضر لها عقارًا منومًا كي تعطيه لسير بيلياس. وترجتها بارسنت ألا تفعل هذا، غير أنها أصرت. وأخيرًا تناول سير بيلياس العقار الذي دسته له ليدي إيتارد في العشاء.

وعندما غط سير بيلياس في النوم، جردته ليدي إيتارد من كل ملابسه عدا ملابسه الداخلية وأخذته إلى مكان عام خارج القلعة. وعندما تشرق الشمس، سيتجمع كل الناس حوله يهزءون منه فيشعرونه بنفس الخزي الذي جعل سير إنجامور يشعر به عندما هزمه.

وهذا ما حدث بالضبط عندما استيقظ سير بيلياس في اليوم التالي؛ فقد وقف هناك مرتبكًا، شبه عارٍ، ومذلولًا، إلى أن ركضت بارسنت إليه حاملة بطانية كي تغطيه بها.

تملك الغضب الشديد من سير برانديلز وسير مادور دي لا بورتيه من أجل ما فعلته ليدي إيتارد، وتوسلا إلى بيلياس أن يسمح لهما بأن يحضرا الدعم من كاميلوت كي يلقنا ليدي إيتارد درسًا لا تنساه.

لكن سير بيلياس رفض؛ فهي — كما أخبرهم — امرأة في المقام الأول، ومن ثم، سوف يدافع عن كرامتها حتى الموت، ومن أجل سبب آخر كما اعترف لهما ألا وهو أنه واقع في غرامها. وبعد أن قال سير بيلياس هذا، طلب من حامل الدرع أن يحضر له درعه.

قال بيلياس: «سأحاول أن أزورها. لا أعرف نوع السحر الذي أنا خاضع له، لكنني سأموت قطعًا إذا لم أرها وأتحدث إليها مرة أخرى.»

ارتدى سير بيلياس زي القتال الكامل، ثم اتجه إلى طرف جرانتمسنيل وانتظر. وبعثت ليدي إيتارد عشرة فرسان كي يعاقبوه. ولمّا كان سير بيلياس فارسًا عظيمًا بالفعل علاوة على أن الحب أمده بالقوة في تلك اللحظة، فقد هزم سريعًا ثمانية منهم، وكان الفارسان الأخيران على وشك الالتفاف والفرار منه، لكن سير بيلياس رفع يديه عندئذ معلنًا استسلامه. جراه إلى القلعة، فابتسم سير بيلياس في نفسه، لأن هذا هو عين ما أراده. وظن أنه سوف يرى محبوبته مرة أخرى في غضون لحظات معدودة، لكن ليدي إيتارد رأته أولًا.

صرخت ليدي إيتارد من أعلى البرج فيما وصل الفرسان بسجينهم: «لا تحضروه لي! ضعوه على جواده وأوثقوا يديه خلف ظهره وقدميه تحت بطن جواده، ثم أرسلوه إلى الخارج حتى يضحك الجميع عليه مرة أخرى.»

وعندما رأى سير برانديلز وسير مادور دي لا بورتيه هذه الإهانة الأخيرة، ترجيا سير بيلياس بإلحاح شديد أكثر من المرة السابقة أن يسمح لهما بأن يستردا كرامته.

قال سير بيلياس في إصرار: «لا أكترث بكرامتي.» قال هذا لأنه كان تحت تأثير القلادة السحرية التي كانت ترتديها ليدي إيتارد الآن طوال الوقت.

غير أن صديقَي بيلياس واصلا محاولاتهما: «حسنًا، وماذا عن كرامة الملك آرثر وطاولته المستديرة؟»

رد سير بيلياس بصوت عظيم ومزعج: «لا أكترث بهما أيضًا.»

الفصل الثاني

فيما كان سير بيلياس بالخارج في مغامرته الخاصة بالدفاع عن جمال الملكة جوينيفير، كان هناك فارس آخر في كاميلوت يثير أعصاب الملكة. كان هذا هو سير جيواين الذي كانت تمقته منذ زمن طويل، وكانت تحمل له مشاعر البغض، ربما منذ ذلك اليوم الذي لم يرفض فيه فحسب المساعدة في حماية مملكة والدها وإنما أيضًا رد على طلبها بوقاحة. كان يراه الكثيرون على أنه شخصية ساحرة، غير أنها كانت تراه متشامخًا مغرورًا، وقد قسى قلبها تجاهه.

في يوم من الأيام قفز أحد الكلاب المفضلة لدى الليدي جوينيفير على سير جيواين وهو متسخ القدمين. ولمّا لم يكن سير جيواين يعلم أن جوينيفير تراقبه، ضرب الكلب على أذنيه. هرعت جوينيفير نحوه، وسألته لماذا ضرب كلبها.

رد سير جيواين: «لأن كلبك هاجمني، وعندما يهاجمني شيء أهاجمه بالمثل.»

انتصبت جوينيفير في شموخ وسألته: «أنسيت إلى من تتحدث؟ كيف تجرؤ على الحديث إليّ هكذا؟»

انتصب جيواين بنفس الشموخ وقال: «ربما أنتِ يا سيدتي التي لا تذكرين أنني ابن ملك عظيم، وأنا أجرؤ على فعل ما يجب عليّ فعله دفاعًا عن حقوقي.»

شهق جميع الحاضرين وأداروا نظرهم بعيدًا في الحال. ووقفت جوينيفير مستشاطة غضبًا لحظة قبل أن تتحدث إليه مرة أخرى، وأخيرًا نطقت وقالت له: «سير جيواين، أنت متشامخ ومغرور بما يفوق كل الحدود. أنا الملكة وهذا بلاطي، وأنا آمرك أن ترحل وألا تريني وجهك إلى أن تكون مستعدًّا للاعتذار لي عن الطريقة الوقحة التي تعاملني بها دائمًا!»

وبهذا استدارت جوينيفير واتجهت إلى غرفتها، غير أنها ما إن دخلتها حتى بكت في الخفاء من شدة الغضب والخزي. لقد كرهت الموقف الذي حدث للتو، لكنها في الوقت نفسه كانت فخورة بما فعلته، وكانت ستفعله مرة أخرى لو تكرر الأمر.

لمّا سمع سير إيواين أن من المزمع أن يغادر ابن عمه كاميلوت، طلب من الملك آرثر أن يأذن له بمغادرة البلاط بالمثل. وافق الملك آرثر بكل سرور، ورحل الفارسان معًا بحثًا عن مغامرة أخرى عظيمة.

أخبرهما الرهبان في الدير عن بقعة في أحد المروج حيث يتدلى ترس من أحد أشجار الجميز، وقال الرهبان إن ثمة بعض النساء اللاتي أسأن معاملة هذا الترس للغاية. وفكر جيواين وإيواين أن هذا أمر في غاية الغرابة، لكنهما انطلقا للعثور على أولئك النساء.

وبالطبع عثرا على المرج، وعلى شجرة الجميز، وعلى الترس، وثلاث فتيات حسناوات يَسبُبن الترس ويرشقنه بالحجارة والوحل، وكان صاحب الترس فارسًا يتسربل بملابس سوداء بالكامل يجلس في هدوء على جواده لا ينبس ببنت شفة ولا يفعل شيئًا.

هجم سير جيواين على الفتيات وهو يصيح فيهن: «ابتعدن!» وبعد أن ألقين حفنة أخيرة من الوحل، فررن بسرعة. اقترب الفارس الأسود، وما أدهش سير جيواين أنه سأله عن سبب تدخله. وأجاب جيواين متعجبًا: «لأنهن كن عديمات الاحترام مع ما بدا لي ترسًا فروسيًّا أصيلًا.»

أجاب الفارس الأسود في ضجر: «إنه ترسي، وأنا قادر تمامًا على الدفاع عنه.»

قال جيواين متحديًا الفارس: «ليس هذا واضحًا!» وعندئذ تبارى الرجلان، فيما احتشد جميع الناس الذين داخل القلعة ونظروا من فوق الأسوار. شعر جيواين، الذي لم يطرحه أحد قط عن صهوة جواده — عدا الملك آرثر — بالثقة الشديدة في أنه سوف يفوز في المبارزة. ولكن قبل أن يفطن، وجد رمحه مكسورًا إلى أجزاء عديدة، وكان هو نفسه يطير في الهواء عن صهوة جواده وينطرح بقوة على الأرض المتربة.

جُرح كبرياء سير جيواين الذي اندفع بغضب شديد نحو الفارس الأسود، واستجاب الفارس الأسود بالمثل إلى أن أقحم سير إيواين جواده بينهما.

صاح سير إيواين: «يا للعار يا جيواين! أن تتعارك هكذا مع فارس قاتلك بطريقة ودية في مبارزة عادلة!»

هز جيواين كتفيه وأعاد سيفه إلى غمده، وفعل الفارس الأسود الشيء نفسه. وبعدما ساد السلام مرة أخرى، دعا الفارس الأسود سير جيواين وسير إيواين إلى منزله لتناول

الشراب. وجدا منزله فخمًا وملكيًّا، واتضح أن الفارس الأسود هو سير مارهوس ابن ملك أيرلندا. وشعر جيواين بالارتياح لأنه على الأقل تلقى هزيمته على يد شخص رفيع الشأن.

أخيرًا أوضح مارهوس سبب وقوفه بالقرب من الترس وعدم الدفاع عنه. فمنذ فترة مضت، أطاح سير مارهوس عن طريق الخطأ بمحبوبة أحد الفرسان عن جوادها حيث وقعت في الماء، وعقابًا له قبِل ليس فقط أن يقف على مقربة من الترس مكتوف اليدين فيما تقوم جواري السيدة بقذف الترس بالإهانات والطين، ولكن أيضًا أن يدرأ عنهن هجمات أول سبعة فرسان يأتون ليدافعوا عن الترس. وكان سير جيواين هو الفارس السابع، ومن ثم حرر سير مارهوس من الواجب الذي كان عليه. وهكذا أصبح سير مارهوس طليقًا الآن كي ينضم إلى سير جيواين وسير إيواين في بحثهما عن مغامرة.

في اليوم التالي صار الرجال وسط «غابة المغامرات»، وكان الصمت مطبقًا للغاية حتى إنهم ما كادوا يسمعون وقع حوافر أحصنتهم على الأرض. تبعوا ظبيًا صغيرًا فوصلوا إلى نافورة تجلس بجانبها امرأة جميلة ذات وجه أبيض كالعاج، وشعر حالك السواد، وعينين مشرقتين ومتلألئتين كالجواهر، لم تكن سوى الجنية نيمو، كبيرة سيدات البحيرة.

أخبرت نيمو الرجال أن سير مارهوس سيصير يومًا ما أحد أشهر فرسان الطاولة المستديرة. غير أن مغامرة اليوم هي مغامرة سير جيواين. وأخذت نيمو الرجال إلى قمة أحد التلال حيث نظروا إلى أحد الوديان بالأسفل فرأوا منظرًا في غاية الغرابة بحق. رأوا فارسًا متسربلًا بملابس حمراء بالكامل، قاتل بمفرده عشرة فرسان هجموا عليه، وفي منتهى البراعة ضرب أول ثمانية فرسان منهم وبدا آخر فارسين على وشك الهروب. لكن عندئذ، تصرف الفارس الأحمر أغرب تصرف يمكن توقعه؛ لقد ألقى بسيفه بعيدًا واستسلم لهما، فأخذاه إلى قلعة قريبة.

قالت نيمو: «انتظروا فحسب.» وبعدها ببضع ثوانٍ رأوا نفس الفارس يُطرد من القلعة ويداه موثقتان خلف ظهره وقدماه تحت بطن جواده.

أخبرت نيمو جيواين: «والآن يمكنك أن تذهب، فهذه مغامرتك.»

نزل سير جيواين، وسير إيواين، وسير مارهوس إلى الوادي ودهشوا كثيرًا حينما رأوا خيام سير برانديلز وسير مادور دي لا بورتيه وشعاريهما أيضًا. جلس الفرسان الخمسة الودودون وتناولوا الشراب معًا. لكن عندما سأل جيواين سير برانديلز وسير

مادور عن المنظر الذي شاهدوه في الوادي، بدا عليهما عدم الرغبة في الإجابة، وبدلًا من أن يجيباه، طلبا منه أن يتبعهما ليعرف الإجابة بنفسه.

قال جيواين في صرامة عندما رأى أن الفارس الأحمر هو سير بيلياس: «سير، أنت أحد فرسان البلاط الملكي للملك آرثر، كيف تذل نفسك والبلاط الملكي هذا الإذلال المخجل؟»

لم يجبه بيلياس.

قال سير جيواين بعنف شديد: «سير، أجبني بطريقة أو بأخرى، أجبني بالكلمات أو بمقاتلتي لأنني لن أسمح بمثل هذا الخزي أن يلحق بملكنا دون أن أدافع عنه. لقد كنا أنا وأنت أصدقاء يومًا ما، لكن إن لم تفسر لي الأمر في الحال، فسأعتبرك عدوي.»

وعندما أوضح بيلياس الأمر أخيرًا، اتفق معه سير جيواين أنه يبدو وكأنه مسحور، مثلما فعل أحد الأشخاص بالحكيم ميرلين مؤخرًا. وأقسم سير جيواين، ليس فقط أن يكشف سبب المشكلة وإنما أيضًا أن يسترد كرامة صديقه. وكانت لديه خطة لهذا.

فبعد أن ارتدى سير جيواين ملابس قتال سير بيلياس الحمراء وامتطى جواده، اتجه نحو قلعة ليدي إيتارد بشجاعة. وحدث أنها كانت تسير في تلك الأثناء بطول أحد الأسوار الخارجية ورأت الفارس الأحمر يقترب.

فنادته: «لماذا رجعت؟ ألا تفهم أنك كلما أتيت إليّ ازددت كرهًا لك؟»

خلع سير جيواين خوذته وأراها وجهه وقال: «أنا لست الرجل الذي تكرهينه، لقد هزمته وأخذت درعه وجواده، ولن يسبب لكِ أي إزعاج بعد الآن.»

انبهرت ليدي إيتارد، فقد كان سير بيلياس أحد أعظم الفرسان بالعالم، لذا لو أن هذا الفارس الجديد قد هزمه بالفعل، فلا بد أنه بطل بحق. كما لاحظت أيضًا أنه شديد الوسامة وذو لحية وشعر سوداوين وكثيفين، وعينين زرقاوين زرقة الفولاذ. فدعته إلى داخل قلعتها.

سارت كل الأمور على ما يرام حسب خطة سير جيواين، إلى أن بدأ سحر القلادة السحرية يؤثر فيه بالمثل، وبدأ جيواين يقع في غرامها تمامًا مثلما حدث مع صديقه بيلياس. ولأن ليدي إيتارد أصبح لديها الآن بطل عظيم، رجع سير إنجامور المسكين إلى المرتبة الثانية مرة أخرى الآن.

وبعدما قضى سير جيواين العديد من الأيام السعيدة هناك يغرق في الحب أكثر فأكثر تحت تأثير القلادة السحرية، وجد نفسه يتسأل: لماذا يجدر به أن يرحل من

الأساس؟ فعلى أي حال، لقد أُجبر على ترك بلاط الملك آرثر على نحو يشعر أنه ظالم. لماذا لا يمكث إذن مع ليدي إيتارد الجميلة ويكوّن البلاط الخاص به؟

وعندما لم يعد جيواين، شك سير بيلياس في أنه ربما وقع مكروه، لذا تنكر في زي راهب يرتدي زيًّا أسود وشق طريقه متجهًا نحو القلعة معلنًا أن لديه رسالة هامة للسير جيواين.

ولمّا دخل إلى سير جيواين وليدي إيتارد، ورآهما يتبادلان نظرات الحب والهيام، نزع سير بيلياس قلنسوته وسار نحو ليدي إيتارد مباشرة ونزع القلادة السحرية من رقبتها.

صرخ سير بيلياس: «هذه قلادتي، وليس لكِ أدنى حق فيها!» ثم قال لسير جيواين: «أما أنت فقد خنتني وخنت الفروسية!» ثم صفع جيواين بقوة شديدة حتى إن خاتمه علّم على وجهه.

قال سير جيواين: «لقد خنتك، لكن الجرح الذي أصبتني به الآن يجعلنا متعادلين.»

اشتد غضب بيلياس وقال: «كلا لسنا متعادلين، لأنني جرحت وجنتك فحسب، لكنك جرحت قلبي! سأدفع لك ثمن صفعي إياك، لكنك سوف تدفع لي ثمن خيانتك لي!»

قال جيواين متوعدًا: «أنا على أهبة الاستعداد لمبارزتك!» ولمّا نظر إلى ليدي إيتارد في اشمئزاز؛ إذ لم تعد ترتدي القلادة، استدار كي ينصرف.

سخرت منه إيتارد قائلة: «أجل انصرف! لكن انصرف وعلى وجهك علامة الفارس الأعظم.»

أقسم سير جيواين في غضب: «انظري إلى وجه سير بيلياس غدًا، ولسوف ترين العلامة التي ستكون على وجهه حينها.»

الفصل الثالث

في اليوم التالي، واستجابة لسخرية ليدي إيتارد، تحدى سير جيواين سير بيلياس في مبارزة، وقبل سير بيلياس التحدي.

شاهد الجميع الفارسين العظيمين والصديقين القديمين وهما يتقاتلان. وشاهدت ليدي إيتارد من بعيد، لكن لأن سير بيلياس ارتدى القلادة السحرية مرة أخرى، وجدت نفسها تتمنى أن يفوز هو بالقتال.

اشتبك الرجلان في منتصف الساحة، وفي البداية بدا أن سير بيلياس هو الفائز؛ فقد كسر رمح سير جيواين ودفعه بعنف شديد عن جواده فارتطم بالأرض كأنما قد مات. لكن عندما انصرف سير بيلياس بجواده مبتعدًا أدرك أنه هو أيضًا قد جُرح. فلا بد أن طرف رمح جيواين قد اخترق درعه وانكسر في جنبه لأنه كان ينزف بشدة.

وحدث أن بارسنت وأحد الأقزام كانا يسيران في الغابة وعندئذ عثرا مصادفة على بيلياس الجريح. وكان القزم يعرف أن ثمة قديسًا يتمتع بموهبة الشفاء قد يكون قادرًا على المساعدة، لذا أخذا بيلياس في حذر شديد إلى منزل القديس. غير أنهما وصلا بعد فوات الأوان للأسف، لأن بيلياس كان في غيبوبة الموت بالفعل.

قال القديس: «للأسف لا يمكنني فعل أي شيء له.»

وعندئذ انفتح الباب ودخلت امرأة جميلة، تتسربل بملابس خضراء بالكامل، وذراعاها مغطاة بأساور مرصعة بالزمرد والأوبال، وكان لها وجه أبيض كالعاج، وعيناها سوداوان لامعتان كسواد شعرها ولمعانه. عرف القديس على الفور أنها ليست إنسانة عادية.

ترجته المرأة قائلة: «اسمح لي فقط بقضاء دقائق قليلة مع هذا الرجل. بمقدوري أن أساعده. أعدك بألا أستخدم أي سحر سيئ.»

وافق القديس، وما إن تركهما وحدهما حتى أخذت نيمو قلادتها أولًا من حول عنق بيلياس وتقلدتها حول عنقها مرة أخرى. وبعدئذ ضغطت بحجر سحري على جرح بيلياس وراقبت فيما خرج رأس الرمح. ثم وضعت نيمو على الدم الذي تدفق سريعًا قطعة من القماش السحري. وأخيرًا أخرجت أنبوبًا صغيرًا مليئًا بعقار أزرق، ثم وضعت قطرة منه على شفة بيلياس الجافة، وشاهدت الفارس الجريح وهو يعود فجأة إلى الحياة بعد أن شارف على الموت. غير أنه لا مجال لإنكار أنه عاد شخصًا مختلفًا تمامًا.

سألها بيلياس: «هل أنا ميت؟»

ردت نيمو: «لا، لكنك لم تعد كما كنت من قبل، فلكي أنقذ حياتك اضطررت أن أعطيك عقارًا جعلك نصف إنسان فقط، وأنت نصف جني الآن أيضًا.

وكانت نيمو ترتدي القلادة السحرية الآن، وعندما حدق سير بيلياس فيها لم يشعر بشيء سوى العرفان بالجميل والحب. بل إنه شعر وهو نصف جني أنه أفضل مما كان، فكان جسده خفيفًا خفة الهواء، وروحه ملآنة فرحًا.

سألها: «هل يمكنني الآن أن آتي لأعيش معكِ؟ فبما أنكِ أنقذتِ حياتي، أيمكنني أن أهديكِ هذه الحياة الآن إلى الأبد؟»

همست نيمو: «منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها، كان هذا هو كل ما تمنيته.»

ووقع الاثنان عقد حبهما الجديد بقبلة.

في تلك الأثناء، كانت بارسنت والقزم قد شقا طريقهما عائدين إلى القلعة حاملين خبر موت بيلياس الوشيك، إذ لم يعرفا أنه قد تعافى. وتملك سير جيواين، الذي كان ما زال في حالة صحية واهنة، شعور شديد بالذنب، فقال: «في أول الأمر خنته، والآن أنا المسئول عن موته. لا بد أن أذهب لأطلب عفوه!»

عرج جيواين أولًا على منزل القديس، ثم واصل المسير في الطريق الذي أخبره القديس أنه سلكه برفقة نيمو. وقد فرح للغاية عندما عرف أن نيمو قد شفت صديقه، غير أنه ظل بحاجة إلى أن يعثر عليه ويضع الأمور في نصابها الصحيح.

واصل جيواين مسيره إلى أن بدأت الغابة تزداد في الظلام المدلهم، وفجأة ظهر ضوء أزرق شاحب كي يتبعه جيواين على ما يبدو. وفي هذا الضوء الذي سطع سطوعًا أقوى وأوضح من القمر، استطاع جيواين أن يرى كل بتلة من بتلات الأزهار الطويلة التي كانت تحيط به. وبعد أن وصل أخيرًا بحيرة زرقاء جميلة، أدرك أنه لا بد في أرض الجنيات.

وفجأة رأى نيمو وشيئًا بدا كروح يخرجان من البحيرة. وما إن أدرك أن الروح هو بيلياس، حتى اندفع في سعادة كي يحضنه، غير أن سير بيلياس منعه برفق.

وأوضح بيلياس لسير جيواين أنه الآن نصف إنسان، وأخبره أنه أحبه وسامحه، لكن حياته ستكون مختلفة تمامًا الآن؛ حياة برفقة نيمو.

سأله سير جيواين: «لكن إلى أين ستذهب؟»

أجابه سير بيلياس: «سأكون هناك.» وكان يشير إلى البحيرة حيث لا يرى سير جيواين سوى الماء، لكن حيث أكد بيلياس أنه ثمة مدينة رائعة من الذهب وحقولًا زرقاء تعج بالأزهار.

نظر سير جيواين إلى وجه سير بيلياس فوجده صار عاجيًّا أيضًا، ولديه عينان شديدتا السواد تلمعان كالجواهر. غير أنه رآه سعيدًا سعادة حقيقية. وبعد أن وعده سير جيواين أنه سوف يعتذر إلى جوينيفير، استدار ورحل.

وراقب سير جيواين بمزيج من السعادة والحزن بيلياس ونيمو وهما يستديران ويغوصان في الماء. وبعدها عاد جيواين ورجال آخرون إلى كاميلوت حيث أقام علاقة سلام واهنة مع الملكة جوينفير وفاءً بوعده. وضم الملك آرثر سير مارهوس إلى رفقاء الطاولة المستديرة، وأصبح هذا الأخير واحدًا من أشهر فرسانها. أما ليدي إيتارد، فبرحيل كل الفرسان الآخرين، بدأت تنظر من جديد بعين الاستحسان إلى سير إنجامور الذي عانى طويلًا والذي تزوجها سريعًا وأصبح لورد جرانتمسنيل.

الجزء الثالث

قصة سير جيواين

الفصل الأول

سنتناول في هذا الجزء الأخير قصة سير جيواين، الذي يكون عنيفًا وفظًّا في طريقته أحيانًا، كما رأينا، لكنه يتمتع أيضًا بطبيعة رقيقة وولاء عظيم.

في أحد الأيام، فيما كان الملك آرثر ورجال حاشيته يتنزهون في الأراضي، اندفع غزال أبيض لطيف وسط الأشجار على بعد يطارده كلب أبيض جميل. وبعد قليل من المطاردة في بقعة خالية من الأشجار، رجع الغزال المذعور إلى وسط الأشجار، والكلب في أعقابه مباشرة.

وقبل حتى أن يتمكن رجال البلاط من الالتفات مرة أخرى لتناول طعامهم، اندفع كائنان آخران من الغابة في جلبة. كانا فارسًا وسيدة يرتديان ملابس تبدو كملابس الصيد. وأخيرًا ظهر مخلوق آخر؛ فارس وحيد يمتطي جوادًا أسود وقد بدت عليه أمارات الغضب، وهجم على الفارس الآخر وطعنه بسيفه، وجذب السيدة التي كانت معه، وألقى بها وهي تصرخ على صهوة جواده ثم عاد أدراجه نحو الغابة. وبعد لحظة، جاء اثنان من حاملي الدروع، وحملا الفارس الجريح ورحلا بالجوادين.

ولأن الأمر برمته حدث بسرعة بالغة وفي بقعة بعيدة عن البقعة التي يتنزه فيها رجال البلاط، لم يستطع أي منهم أن يخطو خطوة واحدة. غير أن الملك آرثر طلب من سير جيواين أن يتحقق من الأمر وأن يأخذ معه أخاه جيهاريس حاملًا لدرعه.

أول شيء عثر عليه جيواين وجيهاريس هو فارسان يتقاتلان. واتضح أن الفارسين هما أخوان، يتبارزان من أجل نفس الغزال والكلب، وقد شرعا في قتالهما لأن أحدهما تمنى أن يهرب الغزال من الكلب والآخر تمنى أن ينال الكلب من الغزال ويقتله. وبعد ذلك بدآ يتشاجران حول من ينقذ السيدة وهما لا يزالان بصدد هذا إلى الآن.

ترك جيواين وجيهاريس هذين الفارسين ومضيا قدمًا في مغامرتهما. وكان الشيء التالي الذي عثرا عليه هو قلعة كبيرة. وعلى أعتابها رقد الكلب ميتًا جرّاء رشقه بالعديد من السهام. أحب جيواين الكلاب وألقى باللوم على الغزال، وبعدما ركض الغزال مرة أخرى بالقرب منهما بعدها بلحظة، أمسكه جيواين وقتله. ولمّا رأى اللورد والليدي صاحبا القلعة هذا المنظر من النافذة، هرعا على الفور إلى جيواين.

صرخت الليدي التي سقطت على الأرض باكية: «أوه، ماذا فعلت بغزالي المحبوب؟»

اعتذر جيواين، لكن عندما ضربه اللورد بسيفه، اندهش وثارت ثائرته. ومع أن اللورد طلب عفوه، شهر جيواين سيفه كي يذبحه.

غير أن ما حدث بعدها لم يكن جيواين يقصده. فعندما كان يلوح بسيفه، هرعت الليدي إلى الأمام كي تدافع عن زوجها، وحاول جيواين أن يتراجع عن طعنته، لكن السيف لمس رقبة السيدة مما جعلها تنزف وتخر على الأرض وكأنها ماتت مثل الغزال.

لكن من حسن الحظ أنها لم تمت. وشعر اللورد بالامتنان الشديد من أجل هذا، حتى إنه سامحه على كل شيء ودعاه هو وجيهاريس إلى العشاء. وأثناء العشاء، أخبرهم اللورد بقصة أخيه الذي اتخذ أخت زوجته زوجة له.

قال اللورد إن امرأة غريبة تتسربل بملابس حمراء بالكامل وشعرها أحمر قد أعطت إحدى الأختين الغزال، والأخرى الكلب. وكانت الأختان غاية في السعادة، غير أن المطاردة بدأت في التو تقريبًا فتشاجرتا معًا. واعترف اللورد أنه كان هو ذلك الفارس الغاضب الذي يرتدي ملابس سوداء الذي طعن أخاه وخطف زوجته. وقد فعل هذا انتقامًا منه من أجل كرامة زوجته وغزالها.

ارتاب جيواين في الأمر، فالمرأة التي وصفها اللورد بدت مثل فيفيان الساحرة، التي تشتهر بارتكاب أفعال مؤذية كهذه بغرض التسلية. قال جيواين: «لمّا صار كل من الغزال والكلب ميتًا الآن، دع شجارك مع أخيك يموت الآن أيضًا.»

وافق اللورد، غير أنه عندما عاد جيواين إلى كاميلوت وأخبر آرثر وجوينيفير بكل ما حدث، حكمت عليه جوينيفير أنه هو من أحدث المتاعب. وقد حدَّثت إحدى جواريها سرًّا أن جيواين لم يظهر أي رحمة مع اللورد، وضرب امرأة وجرحها، قالت جوينيفير: «بالطبع، أصبح سيفه الآن غير شريف.»

ولمّا سمع جيواين هذا مصادفة، خلص إلى أن جوينيفير ستظل تمقته إلى الأبد، ولن تمنحه فرصة لإثبات ولائه. غير أن جيواين أخفى غضبه، وبدافع احترامه للملكة، كسر سيفه الذي صار غير شريف على ركبته.

لكن لا تقلق عزيزي القارئ بشأن جيواين، فقد استطاع لاحقًا أن يثبت نفسه للملكة جوينيفير؛ وربما لك أنت أيضًا.

الفصل الثاني

بعد هذا بفترة، تاق الملك آرثر نفسه إلى مغامرة. ولمّا كانت الملكة جوينيفير وحاشيتها بعيدًا في كارليون، كان الوقت مناسبًا للذهاب في مغامرة. شرع آرثر في رحلته ولم يصطحب معه سوى حامل درعه المفضل بويزنارد.

وبعد أن تاه بعض الوقت في غابة حالكة الظلام، وصل الاثنان إلى قلعة عظيمة لكنها بغيضة. كانت القلعة مُضاءة من الداخل، وعندما قرعا بابها، فتح لهما بواب.

قال الملك آرثر: «نحن فارس وحامل درع نبيلان لكن متعبان. هل يمكن أن تُؤوينا هنا الليلة؟»

قال البواب: «لو كنتما تعلمان مصلحتكما لآثرتما المبيت في الغابة. لا خير للفرسان الذين يسعون إلى مأوى هنا.»

أثار هذا فضول الملك آرثر فأصر على الدخول. قاد البواب آرثر وبويزنارد إلى إحدى القاعات حيث يُقام حفل كبير. جلس فارس عجوز عند رأس الطاولة، وكانت له لحية بيضاء وصدر عريض، وقد ارتدى حول عنقه سلسلة ذهبية بها قلادة، ودعاهما إلى تناول الطعام.

تمثلت التحلية بعد الطعام في ممارسة لعبة ما، ففي مبارزة للشجاعة، يحاول كل متبارٍ أن يقطع رأس الآخر، كما أوضح لهما الفارس العجوز.

قال آرثر: «تبدو هذه لعبة غريبة.» فانفجر جميع من بالقاعة في الضحك، كما لو كان بينهم سر مشترك.

سأله الفارس: «هل أنت خائف؟»

أجاب آرثر في غضب إنه لا يهاب شيئًا، ووافق على المشاركة متجاهلًا توسلات بويزنارد. ولمّا كان آرثر ضيفًا، أصر الفارس العجوز على أن يلوح آرثر بسيفه أولًا.

شهر آرثر — الذي ما زال غاضبًا لكنه يشعر بالرضا لأنه سيبدأ أولًا — إكسكاليبور ولوح به، وفي سلاسة رائعة أطاح برأس الفارس العجوز.

قال آرثر ظنًّا منه أنه فاز: «حسنًا، هذا يكفي.»

لكن ما أثار دهشته الشديدة أنه بدلًا من أن يسقط جسد الفارس العجوز على الأرض، سار الجسد في هدوء إلى حيث وقعت رأسه، ثم التقطها، وأعادها إلى مكانها أعلى جسده حيث كانت في حالة جيدة كما لو كانت جديدة.

قال الفارس العجوز: «حان دوري كي ألوح بسيفي.» وانفجر جميع المتفرجين في الضحك مرة أخرى.

لوح الفارس العجوز، مرة ثم مرتين، لكن في كل مرة كان يقف عاجزًا عن قطع رأس آرثر. حرك سيفه ببطء بضع مرات أخرى، وفي كل مرة كان طرف سيفه يخدش جلد عنق آرثر قبل أن يتوقف.

قال آرثر: «اقطع رأسي إذا كنت تنوي هذا، لكن لا تعذبني أكثر من هذا.»

صرخ الفارس العجوز: «سأفعل شيئًا مختلفًا تمامًا! سأعفو عن حياتك مدة سنة ويوم، على أن تعدني أن تعود بعد هذا الوقت من أجل قطع رأسك.»

وعده آرثر.

أضاف الفارس العجوز: «ولسوف أعفو عن حياتك مرة أخرى حينها إذا استطعت أن تحل اللغز التالي: «ما أكثر شيء ترغب فيه المرأة في العالم؟»

تنهد آرثر؛ فالآن يعذبه الفارس العجوز بالفعل، إذ مَن ذا الذي يعلم ما الذي تريده النساء حقًّا؟ هل هي الثروة؟ أم الجمال؟ أم المقتنيات الجميلة؟ أم القدرة على الإرضاء؟ غير أنه قبِل التحدي بعد أن جعل بويزنارد يقطع له وعدًا بألا يخبر جوينيفير.

مر العام، ومع أنه كان يسأل طوال العام كل امرأة يلتقيها خلال هذا الوقت، شعر آرثر أنه لم يقترب بعد من معرفة ما الذي تريده المرأة. إلا أنه انطلق متجهمًا كما وعد عائدًا نحو قلعة الفارس العجوز ونحو موته المحتمل.

بيد أنه قبل أن يبلغ القلعة مباشرة، التقى بمحض الصدفة امرأة عجوزًا تسكن كوخًا محفورًا في شجرة بلوط مكسوة بالطحالب. كان وجه المخلوقة المسكينة مليئًا بالتجاعيد وقبيحًا على نحو مرعب، وعيناها مغشاة بطبقة رقيقة، وأذناها بارزتين، ولم يتبق بفمها سوى سنّة واحدة. ومع كل هذا، حياها آرثر في لطف، وقام بمحاولة أخيرة للحصول على حل للغزه.

قالت المرأة: «أنا أعرف الإجابة، لكنني لن أخبرك بها إلا بشرط واحد. إذا كان تخميني في محله، فلا بد أن تقطع لي وعدًا بأن أختار أي فارس في بلاطك ليكون زوجًا لي.»

تردد آرثر، إذ لم يكن واثقًا أنه يستطيع أن يقطع وعدًا نيابة عن رجل آخر. غير أنه لمّا كان يعرف أن الاختيار البديل الوحيد هو موته، وأن فرسانه النبلاء كانوا سيفعلون أي شيء كي ينقذوه من الموت، وافق.

قالت المرأة العجوز: «أكثر شيء ترغب فيه المرأة هو أن تحصل على ما تريد.» كما أخبرته أيضًا أن الفارس العجوز هو ساحر شرير وقد لعب هذه اللعبة مع رجال كثيرين، وأنه استطاع أن يفوز في كل مرة بسبب القلادة الذهبية التي يتقلدها حول عنقه، فكلما سقطت رأسه، تذهب روحه بأمان إلى هذه القلادة، وهذا هو السر وراء خدعته.

وحينما وصل آرثر قلعة الفارس العجوز، كان أول شيء فعله هو أن ذكر إجابة المرأة العجوز للغز كلمة بكلمة. جحظت عينا الفارس العجوز من الدهشة، فعرف آرثر أن الإجابة صحيحة.

وكان ثاني شيء فعله هو أن اقترب وأمسك بالسلسلة والقلادة الذهبية.

قال آرثر: «والآن أيها الفارس العجوز، لعلنا نلعب لعبة أخرى، تعطيني فيها هذه السلسلة والقلادة التي حول عنقك.» ثم نزعها آرثر بقوة. انكسرت السلسلة وانفتحت القلادة فظهرت بداخلها كرة متلألئة من الكريستال كانت تحتفظ بروح الفارس العجوز. ألقى آرثر بكرة الكريستال بقوة على الأرض حيث انكسرت، وعندئذ انكسر الساحر العجوز الشرير بالمثل، وأخيرًا خرّ على الأرض ميتًا.

كان آرثر متحمسًا للرجوع إلى بلاطه. وبعد أن توقف بكوخ الشجرة القديم، رفع برفق المرأة العجوز ووضعها بحذر أمامه على الجواد. وطول رحلته كان يعاملها بمنتهى الاحترام كأنها ملكة صغيرة جميلة وليست امرأة عجوزًا.

وعندما وصلا بلاطه، أنصت الجميع إلى آرثر في حيرة صامتة وهو يخبرهم كيف أن المرأة العجوز أنقذت حياته، ويخبرهم بشأن الوعد الذي قطعه لها في المقابل.

سأل آرثر الفرسان الواقفين أمامه: «هل كنت على صواب عندما قطعت هذا الوعد؟» أجابه جميع الفرسان الحاضرين المخلصين بأنه كان صائبًا في قراره. ولمّا سمعت المرأة العجوز هذا، تفرست في جميع الفرسان هنيهة قبل أن ترفع إصبعها الصغير وتختار سير جيواين كي يكون زوجها. وشاهد الجميع بحزن سير جيواين وقد تقدم نحو المرأة العجوز وأمسك بيدها وقبلها.

أخذت الجواري المرأة العجوز وألبسنها ملابس تليق بملكة، مما جعلها تبدو أكثر قبحًا في أعين كل من يراها. وعندئذ تزوجت المرأة العجوز وسير جيواين في كنيسة بلاط الملك آرثر.

وبينما كان يفعل كل ما بوسعه كي يؤدي واجبه، كان جيواين العزيز النفس يعاني في داخله. وبعد الاحتفال، اتجه إلى غرفته وجلس هناك حيث طلب أن يكون بمفرده. غير أنه بحلول منتصف الليل، أدرك أنه كان يُسيء معاملة عروسه ويعاملها بوقاحة، فذهب ليبحث عنها ويعتذر لها.

قالت المرأة: «أنا أقبل اعتذارك. والآن، هذه الغرفة شديدة الظلام، لماذا لا تذهب وتحضر شمعة؟»

عاد جيواين حاملًا شمعة، لكن عندما اقترب، ووقعت دائرة الضوء على وجهها، لم ير المرأة العجوز التي تزوجها، بل امرأة آية في الجمال ذات شعر أسود طويل، وعينين سوداوين كالجواهر، وشفتين مثل المرجان.

شهق جيواين قائلًا: «من أنتِ؟»

ردت المرأة: «أنا زوجتك، وقد كنت قبيحة وعجوزًا لأنني سُحرت بسحر شرير، لكن عندما عطفت عليّ وتزوجتني حررتني جزئيًّا.»

سألها جيواين: «ماذا تقصدين بجزئيًّا؟»

أجابت: «لا بد أن أظل عجوزًا قبيحة نصف اليوم، لكنني سأدعك تختار أي نصف.»

أجاب جيواين بأنه لا يأبه برأي الآخرين أثناء النهار، وأنه يفضل أن ترافقه بجمالها الحقيقي أثناء الليل عندما يكونان معًا وحدهما. لكن زوجته ردت بأنها تؤثر أن تكون جميلة أثناء النهار حتى لا يسخر منها الناس.

أجاب جيواين: «حسنًا إذن، أنتِ زوجتي وأنا أكن لكِ الاحترام، ليكن ما تريدين في هذا الأمر وفي كل أمر.»

ضحكت زوجته وأقرت بأنها كانت تمتحنه امتحانًا أخيرًا، وأنه اجتازه بنجاح على نحو رائع. وأوضحت له أنها واحدة من سيدات البحيرة لكنها أحبته منذ أن رأته عندما كان يودع سير بيلياس، وهكذا صارت امرأة من أجله.

دعا جيواين كل من في البلاط ليأتوا ويحضروا معهم الأنوار والشراب. وعندما وصلوا، ابتهجوا للغاية لدى علمهم بما حدث، والتقوا بزوجة جيواين الحقيقية.

إذن ليكن هذا درسًا لك، فكما أن زوجة جيواين بدت له في بادئ الأمر بغيضة، فكذلك يبدو الواجب لكل إنسان. لكن ما إن يكرس المرء نفسه لهذا الواجب، كما يفعل

العريس بطول أناة مع عروسه، حتى يصبح الواجب عادة جميلًا. أتمنى لك عزيزي القارئ أن ترى نفسك على قدر الواجب الموكل إليك وأنت تنعم بالسعادة مثل سير جيواين.

وفي مناسبة أخرى سوف أخبرك بقصص بعض الفرسان العظماء الآخرين. لكن حتى ألقاك مرة أخرى، وداعًا.